سينما

ليلى المراكشي جنازة (صاخبة) لدى البورجوازية المغربية

بعد باكورتها الروائية الطويلة «ماروك» (2005)، تعود السينمائية المغربية المقيمة في باريس بفيلمها «القصبة تهتزّ» الذي يطرح في الصالات اللبنانية بدءاً من الرابع من أيلول (سبتمبر). مع هيام عبس ونادين لبكي ومرجانة العلوي وعمر الشريف، تدخلنا إلى عالم أغنياء المغرب موجهةً بعض النقد للدين والنظام الذكوري

بانة بيضون

هيام عباس ونادين لبكي في مشهد من الفيلم

في «القصبة تهتزّ» (2013) تروي المخرجة المغربية ليلى المراكشي (1975) قصة عائلة مغربية بورجوازية تجتمع بعد موت الأب، فتتفجر النزاعات العائلية وتكشف الأسرار القديمة، وتسعى كل واحدة من نساء العائلة للتحرر من شبح الأب المسيطر. الفيلم يبدأ بمشهد للممثل المصري عمر الشريف في دور شبح الأب المتوفي وهو يتحدث عن السينما قديماً حيث كان الراوي يقص الفيلم للمشاهدين قبل بدئه ثم يختتم بعبارة طريفة وذكية: «كانوا يراعون مشاعر المشاهدين في ما مضى». يعبر هذا المشهد عن خصوصية في السرد السينمائي، لا نراها لاحقاً إلا في لقطات نادرة. في ما تبقى، يتخذ الشريط منحى أكثر كلاسيكية في السرد.

تعود الابنة المتمردة صوفيا (الممثلة المغربية مرجانة العلوي) التي تعمل كممثلة في أميركا برفقة ابنها من نيويورك. تلتقي بأختيها كنزا (الممثلة المغربية لبنى الزبال) التي تعمل كمعلمة وهي الأكثر تزمتاً وقرباً من أبيها الراحل، ومريم (الممثلة والمخرجة اللبنانية نادين لبكي) الغارقة في ضجرها وإحساسها بالفشل، المدمنة على الكحول والعمليات التجميلية في آن معاً، بالإضافة إلى الأم عائشة (الممثلة الفلسطينية هيام عباس) التي لما تزل خاضعة لسلطة الأب حتى من بعد موته، ومربية المنزل ياقوت (الممثلة راوية) والعلاقة المتوترة الغامضة بينهما التي قد توحي بالمثلية الجنسية في مشاهد البداية إلى أن يتضح أنهما ليستا على علاقة، بل في الحقيقة تتشاركان العلاقة نفسها مع ذات الشخص.

قد تذكر هذه الحبكة الروائية بمسرحية «أوغست: مقاطعة أوساج» لتراسي لتس الحائزة جائزة «بوليتزر» والفيلم المقتبس عنها الذي صدر عام 2013 من إخراج جون ويلز وبطولة جوليا روبرتس وميريل ستريب. كذلك، قد يذكّر جزئياً أيضاً بفيلم «مي في صيف» الذي صدر أيضاً في السنة نفسها (2013) للمخرجة الفلسطينية الاميركية شيرين دعيبس، إذ نرى تجتمع الابنة العائدة من أميركا تجتمع بأمها وأخواتها في عمان، حيث تمثل هيام عباس أيضاً دور الأم في الفيلمين. ولو أنّ الشخصيتين مختلفتان، إلا أنّ التفاعل أو التصادم بين الشرق والغرب نراهما حاضرين في الفيلمين ولو أنهما في «القصبة تهتزّ» ليسا ثيمة أساسية كما في «مي في الصيف» لكنهما يتجسدان أكثر عبر أسلوب السرد السينمائي الذي كأنما يحاول دمج هذين العالمين المختلفين من دون أن ينجح تماماً في ذلك.

يتمثل ذلك عبر الشريط الصوتي للشريط مثلاً الذي يضج بالأغاني الأميركية التي لا تتوافق مع السرد السينمائي في مشاهد معينة، بل تبدو كأنها من فيلم آخر، أو عبر النهاية السعيدة المبسطة والمفاجئة التي لا تتوافق مع ما تبقى من أحداث درامية. في الوقت عينه، فالكثير من الحوارات في الفيلم تعبر بطريقة كوميدية عن هذا التصادم بين الثقافتين كالسخرية من صوفيا التي لا تمثل سوى دور الإرهابية في الأفلام الأميركية. الدور المثالي لامرأة عربية كما تعلق أختها مريم التي تنصحها بأن تمثل في أفلام الرعب التي يخرجها زوجها الأميركي، فلا شيء مرعب أكثر من الزومبي إلا العرب. ما يشير إلى أن المخرجة تقصد طرح هذه الثيمة وربما تجسيدها عبر هذا التناقض في الأساليب السينمائية التي تعتمدها ولو أنها تحمل رؤية مزدوجة في الفيلم. لكن من ناحية أخرى، فالتناقض نفسه الذي نراه في بناء الشخصيات والمواقف يثريها ويخرج بها عن التقليدية كالتفاعل بين صوفيا وأختيها وأحاديثهن الطريفة عن الحياة الحميمة والجنس كما في مشهد السوبرماركت، أو في بناء شخصيتي مريم وصوفيا اللتين

> لغة سينمائية ذات جمالية خاصة وأداء تمثيلي متماسك ومقنع

لا تحملان المواصفات التقليدية للبطلة الأنثى كما نراها على الشاشة.

كل ذلك يقدم بورتريه أكثر واقعية يخرج عن الكليشيه عن المجتمع المغربي أو أي مجتمع عربي اليوم. بالإضافة إلى ذلك، تبني المخرجة شبكة علاقات معقدة بين الشخصيات تغني الحبكة الروائية كعلاقة صوفيا بأختها الميتة ليلى التي كأنما تقمصت شخصيتها بعد انتحارها، فأصبحت ممثلة لأنّ ليلى كانت تحلم بذلك وحتى تتقرب من زكريا (الممثل التونسي الفرنسي عادل بنشريف) حبيب ليلى السابق. كأنما تريد أن تستكمل حياة أختها حيث توقفت بعد انتحارها، وزكريا يشاركها في تبادل الأدوار والأزمان. وتبدو هذه الصراعات التي تطرحها المخرجة على الهامش ولا تتبناها في تطويرها للحبكة الروائية أكثر استثنائية من الصراع الأساسي الذي يتجلى عبر الحقيقة الرهيبة التي تكشفها لنا في النهاية هي أن زكريا وليلى هما أخ وأخت من غير علمهما وعلاقة الحب الرومانسية التي نشأت بينهما هي سفاح قربى، والمربية ياقوت لم تكن سوى عشيقة الزوج.

ليست المشكلة في ثيمة سفاح القربى، بل بالأسلوب المبسط التي تعتمده المخرجة في طرحها وردة فعل الشخصيات تجاهه، ما لا يتناسب مع قسوة الحدث وثقله الدرامي. من مشهد اكتشاف الحقيقة، ننتقل بعدها إلى صورة للعائلة مجتمعة وهي تشاهد شرائط الفيديو بسعادة، ما يجسد حالة أشبه بالفصام. بين التراجيدي والكوميدي وبين الدرامي المعبر وبين ما هو أكثر خفة ويخلو من العمق. تتأرجح المخرجة في سردها لكن ما يحافظ على سلاسة السرد هو اللغة السينمائية التي تتمتع بجمالية خاصة في بعض المقاطع كما على سبيل المثال مشهد صوفيا وهي تراقب زكريا يقبل زوجته في الحانة بينما تبدو أقل خصوصية في مشاهد أخرى. لكنّها تبقى متناغمة في إيقاعها، وكذلك الحوارات التي لا تخلو من الطرافة الذكية. ما يضيف إلى الفيلم هو الأداء المقنع والمتماسك للممثلة مرجانة العلوي في دور صوفيا، كذلك نادين لبكي في دور مريم، إضافة إلى الأداء اللافت للممثلة راوية في دور ياقوت وتفاعلها مع الممثلة هيام عباس في دور الأم. ولا ننس قوة حضور عمر الشريف في أدائه لدور شبح الأب الميت الذي يحوم حول البيت ويضيف بعداً مختلفاً للشريط ولو أنّه يبدو كأنه آت من فيلم آخر ولا يمت بصلة لشخصية الأب المتوفي الديكتاتوري كما تصفه شخصيات الفيلم.

Rock the Casbah: بدءاً من الرابع من أيلول (سبتمبر) ـ صالات «أمبير» (1269)، «غراند سينما» (01/209109)

zoom

ثرثرات «حريم» يدفن البطريرك

الرباط ـ محمد الخضيري

يبدأ «القصبة تهتزّ» (2013) بمشاهد خارجية لمدينة طنجة في فصل الصيف. يعيش المصطافون هدوء الفصل، لكن في فيلا راقية تعيش أسرة صوفيا (مرجانة العلوي) حادثاً يفترض أنه مأسوي: موت الأب.

يموت الأب الثري مولاي الحسن (عمر الشريف) تاركاً بناته الثلاث وأرملة وسرّاً يكتشفه المشاهد في النهاية. خلال أيام الحداد الثلاثة، تَكْشف الأرملة وبناتها أسراراً عائلية ويُعِدْن ترتيب التركة المعنوية لـ «رجلهن». عبر استعارة الأب الميت، تطمح ليلى المراكشي (1975 ـ الصورة) إلى إعادة تركيب قصة بـ«توابل شرقية»، مفادها أنه حين تسقط سلطة الأب الطاغية، تسقط معها الأقنعة والأكاذيب.

طيلة ساعة وأربعين دقيقة، تضيء المخرجة المغربية المقيمة في باريس على ثرثرات نساء حول الاغتراب والزواج والجنس. حكايا قد تشكل تفاصيل مهمة في الفيلم، لكنّ المخرجة تعجز عن استثمار معرفتها بهذه الشريحة من المجتمع المغربي لخلق حبكة قوية تجر المشاهد إلى آخر الفيلم. يحكي «القصبة تهتزّ» عودة صوفيا (مرجانة العلوي) من أميركا لتأبين والدها. هنا تلتقي أمها (هيام عباس) وأختيها (نادين لبكي في دور مريم المهووسة بجسدها، ولبنى الزبال الأعقل بين أخواتها). تلعب مرجانة العلوي دوراً غير بعيد من دورها في «ماروك»، الفتاة الثائرة على العائلة وأكاذيبها. صوفيا المتزوجة من أميركي، تقيم في الولايات المتحدة. أما بنات عائلتها، فما زلن خاضعات للتقاليد. يحضر الأب أيضاً من خلال شبحه الذي يتجول في حديقة الفيلا الكبيرة ويحكي قصته. رغم أنّ «القصبة تهتزّ» يحكي قصة عائلة مغربية، إلا أنّ الكاستينغ بطعم «دولي» جلي. بطلاته من جنسيات مختلفة لبنانية وفلسطينية وتونسية وجزائرية وفرنسية وأميركية. اختيار يظهر أن المخرجة لم تكن تُخضع اختيارها للممثلين لواقعية قد تفضحها اللكنات والفهم لسلوكيات وطرق تصرف المغاربة. الكاستنيغ يدل كما لو أن الفيلم موجّه أساساً إلى جمهور غربي يضع العرب في سلة واحدة. هذا الاختيار يجعل من بعض اللحظات وخصوصاً العبارات بالعامية المغربية، تكشف أن الممثلين لا يقتربون بشكل كاف من «الثقافة» المغربية. ورغم بعض المشاهد «الغريبة»، إلا أنّ احترافية الممثلين تقنع وتغطي على النقص الذي يعتري بعض المشاهد.

تحاول المراكشي من خلال «القصبة تهتزّ» تقديم قصة عن أغنياء المغرب، ما قد يبرر الطابع «التجاري» للفيلم. إنها حكاية لا تحتاج إلى الكثير من التفكير، ويبقى كشف سر العائلة في نهاية الفيلم التفصيل الوحيد الذي يخرج من رتابة «المأتم». لكنه أيضاً غير محبوك بما فيه الكفاية ويدخل نفق كليشهات «النهاية السعيدة».

تقول المراكشي في أحد حواراتها إنّ جنازة أحد أخوالها في الدار البيضاء كانت الدافع وراء فكرة الفيلم. تنثر في تفاصيله بعض الإشارات التي تجعل البطلة تشبهها. زوج البطلة مخرج أميركي، بينما هي في الواقع زوجة المخرج الفرنسي ألكسندر أجا. صوفيا تختار العيش في الغربة كما قرارها هي في الواقع. هي تفهم جيداً البورجوازية المغربية تماماً كما بطلتها، لكن العمل ليس سيرة ذاتية. هذا اللبس بين الواقع والخيال عاشته المخرجة أيضاً مع فيلمها الروائي الأول «ماروك» (2005). أثار الأخير الكثير من الجدل في المغرب لأنه يحكي قصة مراهقة مغربية تعشق شاباً يهودياً، ما جلب عليها انتقاد المحافظين المغاربة. لكنه جعلها في قلب السجال الذي كان حاصلاً حينها بين الحداثيين والمحافظين في المغرب، خصوصاً حزب «العدالة والتنمية» الذي كان يومها في المعارضة. لم يكن لهذا السجال إلا نتائج إيجابية على الفيلم الذي حقق إيرادات مهمة.

حاولت المخرجة أن تعود بالصلصة نفسها بعد عشر سنوات: انتقاد الذكورية، والميزوجينيا الطاغية في المجتمع، وبضع انتقادات للدين، وسخرية من طقوس الجنازة لدى المغاربة.

ويبدو أنّ المخرجة تعشق عالم النساء. أنجزت قبلاً وثائقيين هما «وراء أبواب الحمام» و«نساء في المملكة الشريفة». في فيلمها أيضاً، أرادت فتح أبواب «القصبة» ودكّها، في استعارة لأغنية مجموعة Clash الشهيرة: Rock the Casbah. غير أن القصف لم يكن ثقيلاً ليدك القلاع. يتعاطف الواحد بالضرورة مع «مولاي الحسن»، وهنا استعارة أخرى لاسم الملك الراحل الحسن الثاني بسبب أداء عمر الشريف أولاً والمسوغات التي تجدها له حبكة الفيلم لاحقاً. وعلى النقيض، لا يجد نفسه أمام قصص مقنعة للنساء.

مع ذلك، قدمت المخرجة صورة «وفية» عن الأغنياء المغاربة، وربما هذه من النقاط التي تحسب لها، فهي توثق لجزء من المجتمع المغربي نادراً ما يلجه باقي المغاربة. تنجح المراكشي أيضاً في تقديم مشاهد مصورة بشكل جيد، ويبقى سيناريو الفيلم احترافياً. أنجزت المخرجة «القصبة تهتزّ» في حمى التحضير لفيلم آخر كانت لتكون له دلالاته القوية. إنّه قصة عن أرملة وأبناء الجنرال أوفقير الذي حاول الانقلاب على الملك الحسن الثاني، بعدما كان الرجل الأقوى في مملكته في عقد السبعينيات. غير أن فشل المحاولة أودع عائلته سجناً داخل أحد المنازل في منطقة نائية لسنوات عانت فيها الأسرة الأمرين. آخر الأخبار تقول إنّ الفيلم وئِد بعدما تراجعت المراكشي عن إنجازه، رغم أنها لطالما تحدثت عنه. المصادر الصحافية التي نشرت الخبر أشارت إلى أن المخرجة تعرضت لضغوط للإحجام عن مشروعها... كأن البطريرك لم يمت بعد.